

المؤتمر العالمي الثاني لبديع الزمان سعيد النورسي
"بديع الزمان سعيد النورسي واعادة بناء العالم الاسلامي في القرن العشرين"
27 - 29 ايلول 1992 استانبول - تركيا

مؤلفات بديع الزمان كانموذج لتقديم الاسلام الى الغرب

شكران واحدة "ماري ويلد"

باحثة وكاتبة*

لقد قدم بديع الزمان برسائل النور افضل انموذج للاسلام الى الغرب فقدم بذلك افضل خدمة للقرآن وللإسلام. وبتفسيره رسالة القرآن للإنسان هذا العصر اثبت ان الدين الاسلامي هو دين العقل ومنبع الرقي والمدنية الحقيقية للإنسانية.

عندما نقوم بتدقيق رسائل النور التي فيها بديع الزمان كانموذج لتقديم الاسلام الى الغرب ، فان اول ما يجب ان يقال في هذا الصدد هو الاشارة الى ان بديع الزمان قد اخبر ومنذ بداية هذا القرن بان الانسانية ستتقبل الاسلام وستتحول اليه، وان الاسلام سيحكم المستقبل بالقرآن. وبتعبير بديع الزمان "فان الانسانية التي افاقت من صدمة المصائب والحروب الرهيبة التي نتجت عن التقدم العلمي بدأت تفهم ماهية الانسان وفطرته الشاملة وتدرك انه ما من شئ يمكن ان يشبعها غير السعادة الابدية فبدأت تبحث عن الدين الحق"1. ان الانسانية ستتقبل الدين الاسلامي لكونه دين البرهان والعقل، وبذلك سيحكم الاسلام المستقبل. يقول بديع الزمان:

"لاشك ان القرآن الذي تستند جميع احكامه الى العقل والى البراهين العقلية هو الذي سيحكم المستقبل الذي سيسوده العقل والعلم والتقنية"2.

عندما قام بديع الزمان بهذه التخمينات كان العالم الاسلامي في وضع سيء جداً، فاضافة الى كونه تابعاً للغرب من الناحية السياسية والاقتصادية كان واقعاً ايضاً تحت تهديد المدنية الغربية، وكان الاسلام نفسه معرضاً للهجمات، وكانت هذه الهجمات توجه في اكثر الاحيان باسم العلم والتقدم الذي كان الغرب بطله. لذلك فان بديع الزمان عندما قال للشيخ "بخيت" بان الدولة العثمانية حاملة بدولة اوروبية وستلدها في احد الايام، وان اوروبا حاملة بالاسلام فان الاحتمال الاول كان يبدو - مع الاسف - ممكناً، الا ان الاحتمال الثاني كان يبدو بعيداً عن اي احتمال.

وكجميع تخمينات بديع الزمان في المواضيع الاخرى، فقد بدأت تخميناته هذه بالتحقق بشكل لم يكن في عهده من يرى اي احتمال له ، ولنوضح مثلاً على هذا:

نشرت جريدة "الزمان" في نسختها ليوم 12/ نيسان /1922 خبراً عن نشر تقرير في فرنسا بـ "42" صفحة صادر عن مجلس الفاتيكان ويحتوي على ملاحظات المجلس وقلق الكنيسة الجدي من زيادة انتشار الاسلام في اوروبا، ولكي تقوم الكنيسة بعكس هذا التيار فقد قامت بابحاث واسعة، ويحتوي هذا التقرير على نتائج هذه الابحاث. وقد دلت هذه الابحاث التي جرت في "6" بلدان اوروبية على دخول 58135 فرداً الى الاسلام وتخمين ان 130000 شخص يدخلون الى الاسلام في اوروبا كل عام، وبجانب التحليلات الدقيقة المنشورة في التقرير حول الارقام فقد ورد في التقرير ماضي هؤلاء المسلمين وكيف ولماذا اسلموا. وما يهمننا في هذا التقرير هو الارقام، ثم الحقيقة التالية:

لقد تبين ان 74% من هؤلاء اسلموا "وعددهم 58135 فرداً" لان الاسلام انقذهم من المادية ووهب لهم الطمأنينة والسعادة وكان 32% منهم قد ذكر بان رسائل النور كانت السبب في اسلامهم.

وهذا التقرير يصادق على تخمين بديع الزمان بشكل كبير ويدل في الوقت نفسه على ان المسيحية بشكلها الحالي عاجزة عن اشباع حاجات الانسان الغربي. وكلما تم التغلب على المفاهيم الخاطئة والشائعة في الغرب حول الاسلام، وعلى القناعات الخاطئة والاحكام المسبقة حوله، فان اناساً باعداد متزايدة على الدوام سيقفون بان القرآن وحده هو القادر على الاستجابة لهذه الحاجات. وكما اشار التقرير فان رسائل النور تمثل نمودجاً مؤثراً للاسلام المقدم للغرب وعلينا ان نبحث عن اسباب هذا هنا.

لايمكن القول بان بديع الزمان يخاطب الغرب او غير المسلمين بشكل مباشر، الا ان رسائل النور - التي هي تفسير للقرآن - تقوم بابلاغ الرسالة العالمية للقرآن، لذا فهي تخاطب الانسانية باجمعها. وكما نفهم من بعض كلمات بديع الزمان، فانه كان يأمل في خلاص الناس مهما كان منشأهم. اي انه مع كونه ضد جوانب عديدة من المدنية الغربية، الا انه كان يضمن ويأمل في دخول الشعوب الغربية الى الاسلام واتباعهم للقرآن وخالصهم عن هذا الطريق. ويكرر بديع الزمان في العديد من كتبه حول ظهور المسيحية الحققة في المستقبل واتباعها للقرآن، وتوحيد جهودها مع الاسلام في النضال ضد الاحاد 3. وكما سنرى بعد قليل فان بديع الزمان يفرق بين

الاتجاهات النابعة من الفلسفة في المدنية الغربية، والتي أصبحت مصادر للالحاد، عن الاتجاهات النابعة من المسيحية. وهذه نقطة هامة يجب تسجيلها، ذلك لان العلاقات بين الاسلام والغرب كانت طوال التاريخ علاقات منافسة وخصام، وفي بداية هذا العصر بلغت سيطرة الغرب على العالم الاسلامي الذروة، لذا فان مؤلفات بديع الزمان توجهت وبمقياس كبير لنقض اسس التفكير الغربي، واسس المدنية الغربية وللدفاع عن القرآن وعن الاسلام ضد هجومات الغرب. وهذا يعد في الوقت نفسه خطاباً للمسلمين المعاصرين الواقعيين تحت تأثير الغرب والفلسفة الغربية، ويجعل لرسائل النور موقعاً ممتازاً، ويؤمن فهم حقائق الاسلام من قبل الغربيين بكل سهولة في الوقت نفسه، وليست هناك اية صعوبة في فهمها.

وبصعود الغرب وتدهور العالم الاسلامي وتأخره، فقد عدّ الغرب سيادته وسيطرته دليلاً على تفوق المدنية الغربية على المدنية الاسلامية، ولكي يوسع سيطرته وحاكميته فقد هاجم القرآن منبع ومصدر المدنية الاسلامية، وفعل هذا باسم العلم والرقي الذي اعلن انه اثر من آثار التفكير والمدنية الغربية، وكان بديع الزمان قد نذر نفسه منذ شبابه للدفاع عن القرآن ضد هذه الهجومات عليه، فكان عليه ان يبرهن انه بخلاف هذه الهجومات فان المدنية الحقيقية والرقي الحقيقي والسعادة الحقيقية للانسانية لا توجد الا في الاسلام.

ولاجل تحقيق هذه فقد قام بدراسة العلوم الحديثة والفلسفة، وهذا ما لم يفعله اي عالم ديني آنذاك. وبهذا كان يستطيع ان يناضل ضد اعدائه بنفس اسلحتهم. وعندما تأسست الجمهورية "التركية" واتخذت الفلسفة المادية الغربية اساساً للدولة واسباباً لايدولوجية المجتمع، وتم اتخاذ تدابير ومحاولات على مستوى أبعد لقلع الاسلام من جذوره. لم يكن هناك من يستطيع النضال بفعالية ضد هذه المحاولات المشؤومة سوى بديع الزمان، ولمواجهة هذه المحاولات فقد تناول بديع الزمان المسألة من اساسها، وبدأ بتأليف رسائل النور لاثبات معقولية وحقيقة حقائق القرآن والايمان، وعدم منطوية الفلسفة المادية للغرب القائمة على اساس مفاهيم مثل "الصدف" و "الطبيعة" وتضادها فيما بينها، وكذلك القيام بالاجابة على الهجومات الموجهة نحو القرآن، واثبات تفوق القرآن المطلق الذي لايقبل اي قياس. وعندما كانت رسائل النور تقترب من الحقائق التي يقدمها القرآن ويعلمها، كانت تعقد في كثير من الاحيان مقارنات بينها وبين الفلسفة، وتشرح ماهية ومصدر ونتائج كل منهما، مما كان يسهل على كل من اصطبغت نظرته للحياة وللوجود بصبغة التفكير الغربي معرفة فكرته وسلوكه بسهولة من هذه المقارنة، ويعرف مكن الخطأ الذي وقع فيه ويصل الى الحقيقة. وهذه الطريقة الواضحة والسهلة التي اتبعها بديع الزمان يسرت لكل

امروء اساساً تحليلياً لفحص افكاره ووضعهها في وضح الشمس لمعرفة الحقيقة والوصول اليها.

الدين والفلسفة في رأي بديع الزمان

قبل ان نلقي نظرة الى الجوانب الاخرى لرسائل النور ، فسنلقي نظرة على آراء بديع الزمان حول الدين والفلسفة، ذلك لان هذه الآراء تشكل الاساس لافكار بديع الزمان التي صورها واطهرها في رسائل النور.

يقسم بديع الزمان تاريخ الانسانية الى تيارين، احدهما تيار النبوة والآخر تيار الفلسفة والعلوم، ويربط كلا التيارين بذات الانسان ويصور نتائج كلا التيارين.

فالنبوة - التي تمثل الوحي الالهي - تخاطب قلب الانسان، اما الفلسفة فتخاطب عقله، والهدف هو اتفاق الاثنين، اي قيام الفلسفة باتباع الدين واتباع النبوة وخدمتهما، وكلما تم هذا ذاقت الانسانية طعم السعادة وعاشت في انسجام وتناغم. وعندما يفترق احدهما عن الآخر ينسحب الخير والنور الى جانب النبوة، ويتراكم الشر والضلالة - كما حدث في الغرب - في جانب الفلسفة. والحقيقة ان بديع الزمان يتكلم عن "اوروبيين" . الاولى: هي اوروبا التي قدمت العدل والحقيقة "المستمدة من المسيحية الحقيقية" والامور المفيدة الى الانسانية. والثانية: هي اوروبا المتبعة لفلسفة الطبيعة والتي رجحت جانب الشر في المدنية على جانب الخير فيها. واوروبا الثانية هي المسيطرة حالياً على اوروبا الاولى.

فاذا نزلنا في هذا الى الانسان الفرد، اي الى "الأنا" فان هذا هو نفس موقف الشخص الفرد الذي ينكر الوحي ويثق بعقليته. فلكونه يعد نفسه مالكا لنفسه فهو يظن الشئ نفسه بالنسبة للآخرين، اذ يعد كلاً منهم مالكا لنفسه. وهذا هو اساس الفلسفة المادية، فبدءاً من المجرات الهائلة وانتهاءً بالصغر الذرات، فان جميع الاسباب بدلاً من اضافتها بشكل مباشر الى خالقها، يتوهم بانها هي صاحبة القدرة، اذ يفترضون بان الاسباب تأثيراً حقيقياً، ولها قدرة الخلق من العدم. ومثل هذا الشخص يضيف الى مفاهيم زائفة مثل الطبيعة او قوانين الطبيعة قدرة الخلق، ويفسر كل ما يراه في الدنيا تفسيراً قائماً على الصراع وعلى النزاع.

وتنعكس رؤيته هذه في نظريته الى المبادئ التي يطبقها في الحياة الاجتماعية. وان زعم وادعاء مثل هذه القدرة والتملك سيؤدي لظهور الاصنام والطغاة. وان كل الآلام تولد من هذه الضلالة، وجميع انواع السعادة الحقيقية تنشأ من الايمان المرتبط بسلسلة النبوة. وقد اظهرت رسائل النور هذه الحقيقة بايراد قياسات عديدة، وسنلقي فيما بعد نظرة على هذه القياسات.

اما الشخص الذي يقبل الاسس التي تقدمها سلسلة النبوة والدين، فانه يعرف انه شخص مخلوق وهو لايمثل نفسه بل يمثل معنى غيره اي انه يقبل بانه ليس الا عبداً لله. مثل هذا الشخص ستتعلم من الكتب السماوية الماهية الحقيقية لنفسه ولجميع الموجودات في الكون، ويتعلم واجباته الحقيقية.

وكما يضيف نفسه الى صانعه ومالكة الحقيقي فانه يفعل الشيء نفسه بالنسبة لجميع الموجودات وللكون باجمعه، فقد تحول وجهه عن الوجه الظاهري للاسباب الى المعنى الحقيقي الكامن وراءه، وسيرى الموجودات ضمن نظام التعاون ضمن ، وسيرى الموجودات ضمن نظام للتعاون المتقابل، ضمن تسليم كامل، وتقوم القوانين السماوية الموازية لهذه النظرة بتنظيم حياته الاجتماعية.

واضافة الى هذا الانموذج الديني والفلسفي، فان هناك سبباً آخر يعطي لرسائل النور لياقة وميزة عند تقديم الاسلام الى الغرب، وهو كونها تخاطب العقل. فليست هناك عبارة واحدة ولا ادعاءً واحداً لايستند الى دليل. فجميع المسائل التي تتناولها وجميع الحقائق الايمانية التي تبحث فيها، تقدم بشكل منطقي وفي صورة اراء مبرهن عليها. ولكن لكون معظم هذه المسائل - بسبب طبيعتها وماهيتها - مسائل عميقة ومن الصعب فهمها، فان بديع الزمان يستعين على ذلك - كما يفعل القرآن - بايراد القياسات وضرب الامثال، وبذلك فانه يقرب المعاني الى الاذهان كما يفعل التلسكوب، ويسهل فهمها. ويقوم بديع الزمان بايضاح جميع الحقائق الايمانية واثباتها بهذا الشكل، ويقدمها بصورة يسهل فهم معانيها والنفوذ الى اعماقها. ذلك لان العقل - كما اوضح بديع الزمان - كان هو المسيطر على الغرب الذي كان منبعاً للفلسفة، اما في الشرق الذي ظهر فيه الانبياء فان القلب هو المسيطر. اما الآن فان البشرية التي افاقت ونهضت بدأت تبحث عن الدين الحق، وهي تريد الاقتناع قبل كل شيء، واجوبة منطقية على الاسئلة التالية: "من اين جئت؟ وما سبب مجيئي الى هذه الدنيا؟ والى اين انا ذاهب بعد من هنا؟". والحقيقة انها تريد الايضاحات المنطقية لحقائق الايمان.

العلم والدين

وهكذا نكون قد وصلنا الى النقطة الثالثة: اذ تقوم رسائل النور في بيان كيف ان القرآن لايرى اي تناقض وتضاد بين العلم وبين الدين بياناً واضحاً لا لبس فيه، وقد ابان بديع الزمان هذا الخصوص منذ شبابه حيث قال بان العلم لايعادي الدين، ليس هذا فحسب، بل يجب ان يدرّسا

معاً، ففي سنة 1910 عندما تناول بديع الزمان موضوع تطوير المدارس الدينية قال:

“العلوم الدينية هي ضياء الوجدان والعلوم المدنية هي نور العقل. ومن امتزاجهما تظهر الحقيقة. فبوساطة هذين الجناحين تزيد همة الطلاب. وان افترقا ظهر التعصب في اولهما والتردد والشك في ثانيهما”⁴.

لقد حاول اعداء القرآن من جانب اظهار ان القرآن لايمكن ان يكون مصدراً للرقى، كما حاولوا من جانب آخر نشر المقولة التالية “ان بعض آيات القرآن تتناقض مع العلم” وذلك لكي يهزوا ثقة وايمان الشعب به، وقام بديع الزمان سواءً في شبابه او في رسائل النور بالاجابة على هذه الشبهات وهذه الانتقادات ووضع الدين والعلم معاً وجنباً الى جنب.

وهذا الموضوع مهم جداً بالنسبة للغربيين. ذلك لان العديد من الاوروبيين يعتقدون - استناداً الى تاريخ المسيحية وتطورها - بان العلم يناقض الدين ويعاديه. بينما يصف بديع الزمان الاسلام بانه “سيد العلوم ومرشد العلوم الحقيقية ورئيسها وأبها”. بدلاً من رد الفعل ورفضه، او عزل الدين عن الحياة الدنيوية وجعل الافراد يعيشون في دائرة ضيقة من حياة معنوية ضيقة وخاصة بهم، فان القرآن يكسبنا معرفة الله ويأمرنا في الوقت نفسه باستعمال عقولنا في عبادتنا وفي جميع صفحات ومراحل الحياة، وبذلك يفتح الطريق امامنا لكي ينقلب العلم نفسه الى عبادة. ان العلم الذي يكشف لنا الغاية الالهية من خلق الكون والهدف النهائي لهذا الخلق، هو نفسه مهمة الانسان ووظيفته وعبادته كذلك. والقرآن يوجه الانظار والعقول الى هذه الغايات ويحث الانسان للوصول الى هذه الحقائق عن طريق العلم وعن طريق التقدم. ولكي تتضح هذه النقاط فسنتلقى نظرة على الطرق التي استعملتها رسائل النور - باعتبارها تفسيراً للقرآن - وعلى السبيل الجديد الذي اختطته.

النقطة الاولى التي يجب بيانها في هذا الخصوص هي ان رسائل النور توجه الانظار الى الموجودات التي حولنا والى الكون وتقرب من حقائق الايمان بوساطة الكون والتأمل فيه. وهذه الناحية من رسائل النور هي تفسير لوجه القرآن المطل على عصرنا. فالعديد من آيات القرآن تحتنا على تأمل الكون وتأمل المخلوقات الموجودة فيه وطرق سيرها وعملها، كوسيلة لمعرفة الله ولمعرفة الحقائق الايمانية الاخرى كوجود الله ووحديته والحشر. واكثر الآيات التي تؤكد عليها رسائل النور هي هذه الآيات، لكي تبرهن على حقائق الايمان ولرد الهجمات الموجهة نحو القرآن.

لذلك فان طراز اقتراب رسائل النور من الحقيقة ليس غريباً من حيث الاساس عن طريقة الانسان للاقتراب من الحقيقة، بل يشبهها وينسجم معها. ذلك لان عصرنا هذا هو عصر العلم. وما العلم ان لم يكن استخراج اسرار الكون؟ والغربي المعاصر ليس غريباً عن الكون وعن طريقة عمله، لانه متعود على مراقبة الكون وتأمله ، ونظره متركز على الكون.

ثم ان رسائل النور تنظر الى الكون بمنظار العلم، وهي تقوم في الاغلب بتدقيق الكون في ضوء العلوم كالجولوجيا والبيولوجيا.

ومع ذلك فان رسائل النور - مستلهمة في ذلك القرآن الكريم - تدقق الكون بالشكل الذي اراده القرآن اي ككائن "لايعبر عن نفسه بل عن معنى غيره" اي ان الكون - من زاوية هذه النظرة - "كتاب كبير" ووظيفته هي الإخبار عن كاتبه. وهذا الكتاب يقرأ لكي يتم فهم معانيه ولكي يتم فهم خالقه منه.

النوافذ المفتوحة على التوحيد

ان رسائل النور التي تتأمل الكون في ضوء الوحي القرآني بينما تبرهن من جانب عن طريق هذا التأمل على وجود الله وعلى وحدانيته وعلى الحقائق الايمانية الاخرى، تبرهن من جانب آخر على استحالة مفاهيم اسس الفلسفة المادية، كمفاهيم الصدفة والطبيعة والاسباب، وعلى مدى سطحياتها وتفاهتها ، وتدحض بذلك التفسير المادي للعلم. ورسائل النور تقوم بشرح ماهية الكون والنظام والانتظام السائد في كل شئ فيه، والتوازن والمقاييس الحساسة فيه، والحكمة البادية في كل شئ، وفوائده وعلاقة وارتباط صيدلية الكون بعضها ببعض، وكونها تشكل باجزائها وحدة واحدة، وتبرهن ببراهين عديدة بان جميع الادعاءات المقدمة من قبل الفلسفة المادية هي خارج اي احتمال وخارج كل احتمال . لنشرح هذا ببعض الامثلة القصيرة:

اول مثال يتبادر الى الذهن في هذا الموضوع هو ما جاء في "الموقف الاول" من "الكلمة الثانية والثلاثين". ففي هذا المثال يقال ان وكيل اهل الضلالة يدعى بانه - باسم الاسباب والطبيعة والفلسفة - صاحب هذا الوجود بدءاً من الذرات وانتهاء بالنجوم. فاذا بدأنا بالذرة ثم بكرية حمراء في احد شرايين الجسم الانساني، ثم انتقلنا الى احدى الخلايا، ثم الى الجسم الانساني ثم الى المخلوقات الاخرى، فاننا سنرى انها ترد بلسان الحكمة جميع الادعاءات التي طرحها وكيل اهل الضلالة، وتبين ان النظام الموجود فيها وفي الموجودات ككل نظام بالغ الكمال الى درجة انه لايسمح في اي موضع باي شكل من اشكال الشرك او التدخل. ودليل الوحدانية هذا

يعطي مثلاً واضحاً كيف تقوم رسائل النور بقراءة وتأمل الكون في ضوء العلوم المادية من اجل اثبات الحقائق الايمانية ورد الفلسفة المادية.

اي ان من يكشف نظام الكون في هذا المثال ويعرفه لنا هو العلم الحديث نفسه.

اما الهامش الطويل في "الموقف الاول" الذي يصور ويشرح لنا نظام التنفس ونظام الدورة الدموية في جسم الانسان فهو مثال آخر في هذا الموضوع.

هناك امثلة عديدة في رسائل النور في هذا الموضوع، ورد احدها تحت اسم "نكتة الهواء" والتي وصفها بانها "نكتة توحيدية ظريفة"6. ومثال آخر ورد في "الكلمة الخامسة والعشرون" الذي شرح فيه تفسير ومآل الآية الكريمة الم جعل الارض مهاداً والجبال اوتاداً "النبأ: 6" فعندما يقوم ببيان صفة الشمول الموجودة في الفاظ القرآن، ويشير الى ان الجميع، بطبقاتهم المختلفة - سواءً أكانوا منتسبين الى الادب ام الى العلم - يأخذ كل واحد منهم حصته ونصيبه من هذه الآية ، نراه ملماً بعلوم الجغرافيا والجيولوجيا7.

واذا اتينا الى الطبيعة والى الاسباب، نرى ان رسائل النور تحتوي على ادلة عديدة حول كون هذه المفاهيم باجمعها مفاهيم متهافتة، ودون اي سند او اي اساس. ونرى هذا في الاخص في رسالته "الطبيعة" حيث يقوم بديع الزمان بهدمها تماماً بوساطة تسعة من المحالات والمستحيلات، ويبين "ان ما يطلقون عليه اسم الطبيعة ليس الا شيئاً وهمياً لاحقيقة له، اذ ليست الطبيعة في الحقيقة سوى القوانين المعنوية لنظام الكون المخلوق من قبل سلطان الازل. فهذه القوانين لا تملك الا وجوداً علمياً ولا تملك اية قدرة على الخلق".

ويقول بديع الزمان انه لو تم افتراض النظام الموجود في الكون ناظماً، والصنعة صانعاً، والقوانين الجارية فيه مصدراً للقدرة كما يفترض الماديون. عند ذلك يجب اعتبار كل سبب بل حتى كل ذرة صاحبة علم وقدرة لخلق الموجودات كلها، اي يجب اضافة كل صفات واجب الوجود على كل ذرة من هذه الذرات وكل سبب من هذه الاسباب، وبعبارة اخرى يتحتم على من لا يؤمن بالله واحد ان يؤمن بالهة لاتعد ولا تحصى. وعلاوة على هذا فان هذه الالهة التي لها القدرة لخلق كل شئ ماعداها هي، يجب ان تتفق مع الالهة الاخرى المنافسة لها، وذلك لكي يسود ويستمر النظام في الكون. بينما لا يوجد اي مكان مهما كان صغيراً، ولا اية مكانية ولا اي احتمال لوجود اي شريك يتدخل في هذا الكون، بدءاً من جناح الذبابة صعوداً الى نظام المجموعة الشمسية. ولو كان هناك اي تدخل من قبل اي شئ غير الخالق الواحد الاحد، لادى ذلك الى

اضطراب الكون ولما بقي اي نظام فيه.

ويشرح بديع الزمان كيف ان الاسباب لاتملك قدرة الخلق، وان الخلق امر خاص بالله بالشكل التالي:

“مادامت طبيعة كل شئ مخلوقة كالشئ نفسه، لان تكونها محدثٌ - غير قديم - وعليها علامة الصنعة والاتقان، وان سبب وجود هذا الشئ الظاهري هو ايضاً مصنوع حادثٌ. ولما كان وجود اي شئ مفترقاً الى وسائل وآلات واجهزة كثيرة فلا بد من قدير مطلق القدرة ليخلق تلك الطبيعة في الشئ، ويوجد ذلك السبب له، ولا بد ان يكون - هذا القدير المطلق القدرة - مستغنياً غناءً مطلقاً، فلا يشرك الوسائط العاجزة في ايجاده للشئ وفي هيمنة ربوبيته عليه.

فحاش لله ان يكون سواه القدير المستغني المتعال، بل هو سبحانه وتعالى يخلق المسبب والسبب معاً من علوه خلقاً مباشراً، ويوجد بينهما سببية ظاهرية وصورية، ويقرن بينهما من خلال ترتيب وتنظيم، جاعلاً من الاسباب والطبيعة ستاراً ليد قدرته الجليلة، وحجاباً لعظمته وكبريائه، ولتبقى عزته منزهةً مقدسة في عليائها، ويجعل تلك الاسباب موضع الشكوى لما يترأى من نفاص، ولما يتصور من ظلم ظاهري في الاشياء”8.

وفي كتاب “الآية الكبرى” الذي يحكي عن سياحة كونية خيالية يقوم فيها احد السياح بسؤال كل طائفة من المخلوقات عن خالقها، ويتعلم من كل منها بلسان فطرتها وبطور خلقها شهاداتها. وبينما يقوم بديع الزمان “ضمن هذا الترقى العام في مدارج معرفة الله” بتعريفنا بالطريق المؤدي الى معرفة الله بوساطة الحقائق المشاهدة في الكون وبوساطة اسماء الله الحسنی وصفاته، فانه يقوم في الوقت نفسه بالبرهنة على وجود الله وعلى وحدانيته وعلى جماله وكماله، فنراه يقول مثلاً:

“فيكون وجوده سبحانه للبصيرة اظهر من الشمس للبصر واسطع منها، فتدركه حتى كأنها تراه؛ ذلك لان الكتاب الجميل ذا المعنى اللطيف، والبناء المنتظم المتقن، يستدعيان بداهة فعلي الكتابة والبناء، وفعلي الكتابة الجميلة والبناء المنتظم يستدعيان ايضاً بداهة إسمي الكاتب والبناء، واسمي الكاتب والبناء يستدعيان ايضاً بداهة صنعة الكتابة والبناء وصفتيهما، وهذه الصنعة والصفات تستلزمان بداهة ذاتاً تكون موصوفة وصانعة، ومسمى، وفاعلة، اذ كما لايمكن ان يكون هناك فعل دون فاعل، ولا اسم دون مسمى، كذلك لايمكن ان تكون صفة دون موصوف، ولاصنعة دون صانع.

وهكذا يتقرر بناء على هذه الحقيقة والقاعدة ان هذا الكون - بموجوداته كافة - قد كتب بقلم القدر، وبُني بمطرقة القدرة. فكتب فيه ما لا يحد مما هو بحكم الكتب والرسائل ذات المعاني اللطيفة. وبني فيه ما لا ينتهي مما هو بمثابة بنايات وقصور. فيشير كل واحدة منها اشارات لآحد لها بالآلاف الالوجه، وتشهد معاً بوجوده غير محدودة شهادات لانهاية لها على وجوب وجود ووحداية ذات جليلة ازلية ابدية، هي موصوف تلك الصفات السبعة المحيطة القدسية ومعناها؛ بالافعال الربانية والرحمانية غير المتناهية، وبعجوات غير محدودة لألف اسم واسم من الاسماء الحسنى التي هي منشأ تلك الافعال، وبالتجليات غير المتناهية للصفات السبعة السبحانية التي هي منبع تلك الاسماء الحسنى.. وكذا فان ما في تلك الموجودات كلها من جميع اوجه الحسن والجمال وانماط النفاسة والكمال، ومن جمال قدسى يليق بتلك الافعال الربانية والاسماء الالهية والصفات الصمدانية والشؤون السبحانية ويوافقها، كل منه - بحد ذاته - يشهد وبمجموعه يشهد بداهة على الجمال المقدس والكمال المقدس لذاته سبحانه وتعالى"9.

وصور بديع الزمان نظرة رسائل النور الى الكون بالحكمة التالية:

"وفي كل شئ له آية تدل على انه واحد". وهكذا فان رسائل النور تقوم - كما يفعل القرآن - بفتح نافذة من كل شئ نحو معرفة الله، وما يميز رسائل النور عن سائر الكتب الاخرى، مثلاً عن كتب علماء الكلام، هو انه كما استطاع بديع الزمان استحصال علم يحتاج الى عشر سنوات في سنة واحدة فقط، فانه استطاع ان يقدم اعقد الحقائق بشكل يسهل فهمه ودون ضرر. ويشبه بديع الزمان رسائل النور بعضا موسى، فاين ما ضربها تفجر من ذلك الموضع الايمان بالله ومعرفة الله، فحتى من الذرة الصغيرة يستطيع البرهنة على وجود الله وعلى وحدانيته وعلى علمه وارادته وقدرته وسائر صفاته الاخرى بشكل يسهل على الجميع فهمه. ولاشك ان فوائد طريق رسائل النور، التي تعلم حقائق الاسلام للانسان الغربي وللانسان المعاصر الذي اخذته دوامة الحياة المتسارعة، ولم تتيسر له فرصة الحصول على العلوم الدينية ولا اكتساب الثقافة الدينية فوائد عديدة.

وفعلاً فان من اهم مميزات رسائل النور قدرتها على ايجاد اعلى المسائل الايمانية حتى الى الشخص العامي بشكل سهل ودون صعوبة ودون ضرر. فقبل بديع الزمان لم يكن هناك من استطاع اظهار مثل هذه الادلة الحاسمة حول الحشر وحول الآخرة. وفي بضع صفحات استطاع بديع الزمان وبأسلوب واضح وبراق ان يوضح موضوع القدر والارادة الجزئية وان يبرهن على وجود الملائكة وبقاء الروح.. هذه امثلة فقط في هذا الموضوع.

وعلاوة على هذا يتناول بديع الزمان العديد من المواضيع العويصة للدين ولعالم الوجود، ويأتي بشروحات منطقية حولها، منها ذات الانسان او "الانا"، ومسائل الحياة والموت، وتحولات الذرات، والفعاليات الموجودة في الكون والمستمرة دون كلل، والموجودات من اين جاءت والى اين تذهب؟..

وكلما تفحصنا رسائل النور يصبح الكون - لمن يستطيع مطالعته - كتاباً يفشي جميع اسرار عالم الوجود.

من الشرور الى الخير، ومن الشقاء الى السعادة

ما يمكن ذكره في هذا الخصوص هو ان الشرور والكوارث الموجودة في الدنيا تعد مشكلة في نظر الغربيين.

وتعد هذه الشرور عادة امراً لا يمكن تفسيره، او امراً ظالماً لاعدالة فيه، الى درجة انه يؤدي الى الشك في وجود الله - حاشاه - وفضل الاجوبة التي اعطيت حول هذه المسائل، واكثرها اقناعاً هي الاجوبة التي اعطتها رسائل النور.

فمثلاً يبين لنا بديع الزمان ان الخير والجمال والكمال غاية اصيلة ومطلقة في الكون وفي تنظيم الكون. وكل علم من العلوم يشرح النظام والكمال الموجودين في ساحته وفي مجال اختصاصه، ويبرهن على هذه الحقيقة. اما الشر والقبح والقصور والعبثية قليلة، وتأتي بالدرجة الثانية وهي في مرتبة التابع للآخر، وهي لم تدخل الكون بذاتها بل دخلت كوحدة قياس لكي توضح الجمال الواحد في مراتب مختلفة وبشكل منفصل ومستقل.

ثم قد يقبل شر صغير من اجل الحصول على خير كبير. فلو ترك وسحب شر هو وسيلة لخير عميم، فمعنى هذا انه تم اعتراف شر كبير. وهذا هو سبب خلق الشرور والكوارث والشياطين وماشابه. ذلك لان نتائج مهمة جداً تظهر في الكون بخلق هذه الامور.

ويوضح بديع الزمان فيقول بان الشرور - حتى خلق الشيطان وتسليطه على الانسان - تكون سبباً لرقى دائم وغير محدود للانسان، فالانسان ينال هذا الرقي والتطور الى الافضل عن طريق النضال والسباق، فهذه الدنيا ميدان امتحان، فبالنضال والسباق تتميز الارواح الشبيهة بالفحم عن الارواح الشبيهة بالماس، والابقي الاثنان معاً وصعب التمييز فيما بينهما. لذا ومن هذا المنطلق فان وجود الشر وخلق الشيطان لا يكون شراً، لان وجودهما وخلقهما يؤديان الى نتائج مهمة.

“وعلى غرار هذا فان الصانع الجليل قد ألبسك جسماً بديعاً مزيناً بالعين والاذن والانف وغيرها من الاعضاء والحواس. ولجل اظهار آثار اسمائه الحسنى المتنوعة ببيتليك بانواع من البلايا فيمرضك حيناً ويمتلك بالصحة احياناً اخرى، ويجيعك مرة ويشبعك تارة ويظمنك اخرى. وهكذا يقلبك في امثال هذه الاطوار والاحوال لتتقوى ماهية الحياة وتظهر جلوات اسمائه الحسنى.” 11

وفي الواقع فان السعادة الحقيقية التي يسعى اليها الانسان هي في الايمان بوحداية الله، وما يتبع هذا الايمان من توكل . ويرى بديع الزمان ان احد الاسباب في نجاح رسائل النور وفي انتشارها في جميع الارحاء يكمن في قيامها باثبات هذه الحقيقة. وبينما ترينا رسائل النور - بعد ايراد قياسات عديدة ومختلفة - الالام الناتجة عن الذنوب وعن العصيان، تقول بان الالحاد والضلالة تحول هذه الحياة الدينا الى ما يشبه الجحيم، كما تصور اللذائذ الموجودة في الاخلاق الحميدة وفي افعال الخير، لتبرهن على ان الايمان تحول هذه الحياة الدنيوية الى ما يشبه الجنة. ومثل هذه التحاليل هي اكثر التحاليل فائدة، ذلك لانه يكون بمقدور كل شخص تشخيص ومعرفة وضعه. ثم ان هذه المقاييسات ترينا ماهية الضلالة والنتائج المتولدة عن التطلع الى الدنيا بمنظار الفلسفة ، فمن ينظر بهذا المنظار سيحس - نتيجة حال الدنيا - بالالام لحال الناس ويحس بالالام لحاله، وكل ذلك ناتج من عدم معرفة رب الكون او معرفته بشكل ناقص وقاصر، ولو تم النظر الى الدنيا في ضوء القرآن لزال كل هذه الالام وشُفيت كل هذه الجروح ، ورسائل النور لا تبارى في اثبات هذه الحقيقة.

الاسلوب الهين والمقنع

لانستطيع هنا ان نمر على هذا الموضوع دون ذكر ميزة اخرى لرسائل النور، وهي الاسلوب الناعم والسهل والمقنع لها عند ايرادها لهذه الامثلة. والحقيقة ان هذه الميزة تعد ميزة رئيسية عند تقديم وتعليم حقائق الاسلام للغرب. ونقدم هنا فقرة من تفسير الآية الرابعة من سورة البقرة كمثال على مانقول، فهذه الفقرة تبين الطريقة التي اتبعها بديع الزمان، ودافع عنها في دعوة المسيحيين الى الاسلام.

فالقرآن الكريم يحث اهل الكتاب على الايمان، ويستعمل معهم اسلوباً هيناً ليناً حيث:

“يا اهل الكتاب! انكم لن تصادفوا اي مشقة عند قبولكم الاسلام. فلا يتقل هذا على انفسكم، ذلك لانه لا يأمركم ان تتخلوا عن دينكم تخلياً تاماً بل يقترح عليكم فقط اكمال عقيدتكم وبناء هذه

العقيدة على الاسس الدينية الموجودة لديكم. فلكون القرآن جامعاً لكل جمالات الكتب السابقة ولكل القواعد الاساسية للشرائع القديمة فانه يُعد بذلك مكملاً ومعدلاً في الاصول، اي يقوم بمهمة التعديل والاكمال، وهو مؤسس فقط في الفروع التي تتعرض للتبدل وللتحول نتيجة تغير الزمان والمكان ولايوجد في هذا المر اي شئ غير معقول او غير منطقي.

اذ كما ان هناك ضرورة وحاجة لتغيير المأكولات والملبوسات والادوية حسب تغير وتبدل المواسم الاربعة وكما يتبدل طراز تعليم وربية الفرد حسب اصوار ومراحل حياته فكذلك فان من الحكمة ومن المصلحة تغيير الاحكام الفرعية حسب الادوار والمراحل التي قطعها عمر البشرية¹².

وفي النتيجة نستطيع ان نقول ما يلي: ان بديع الزمان برسائل النور اعطى افضل انموذج لتقديم الاسلام الى الغرب وشرحه لهم، وقدم بذلك للاسلام وللقرآن خدمة لانظير لها. ذلك لانه بتفسيره رسالة القرآن لانسان هذا العصر، اثبت ان الاسلام هو دين العقل وهو منبع المدنية الحقيقية ورقى الانسانية وتقدمها. وفي زمن يقدم فيه الاسلام على انه دين المتعصبين والرجعيين، او كايولوجية سياسية او انه يمثل بوساطة بعض الطغاة والمجرمين، قام بديع الزمان باثبات ان جميع الكمالات الانسانية ورقيا وسعادتها كامنة وموجودة في الايمان بالله، وفي التصديق بوحدانيته، وكامنة في الاسلام الذي يمثل العبودية المطلقة والدين الاسمي.

ويرى بديع الزمان ان السيف الماسي القاطع لبراهين الاسلام يكفي لنشر رسالة الاسلام ودفع الدعوة الاسلامية الى اعلى . فكما كتب بديع الزمان في بداية العصر يقول: "الاقناع هو الوسيلة الوحيدة للتغلب على المدنيين وليس بالاكراه والقوة وكانهم وحوش"¹³.

وكما خمن بديع الزمان بان القرآن سيحكم في المستقبل وان الغرب سيدخل الى الاسلام على شكل دول، فان البلاغة ستكون امضى سلاح في المستقبل "او في آخر الزمان"، اي قابلية اقناع الآخرين بالافكار، وهذا المستقبل آتٍ لا ريب فيه. وبما اننا وُهبنا طريقاً قيماً جداً في نشر رسالة القرآن، فنحن نأمل ان يتحقق الشق الاول من توقع بديع الزمان "وهو ان القرآن سيحكم في المستقبل" ان شاء الله تعالى.

* شكران واحدة "ماري ويلد" باحثة وكاتبة: ولدت عام 1948 في مدينة لانكشاير في انكلترا. تخرجت سنة 1980 من قسم الادب التركي والفارسي في كلية الاستشراق/ جامعة دورهام. اشتغلت تحت اشراف

المستشرق الالماني البروفسور الدكتور باول لونت في رسالة دكتوراه عن مؤلفات "حسين واعظ الكاشفي الهيراتي" وهو من ادباء القرن الخامس عشر. اسلمت سنة 1981 بعد ان قرأت الترجمة الانكليزية لرسائل النور واتخذت اسم "شكران واحدة" وتقيم حالياً في تركيا حيث تُعدّ بحوثاً حول رسائل النور، قامت بترجمة العديد من رسائل النور الى الانكليزية وفي مقدمتها "الكلمات". مؤلفاتها المنشورة: الاسلام والغرب ونحن. مؤلف رسائل النور بديع الزمان

- 1- بديع الزمان سعيد النورسي: "الخطبة الشامية" ص: 20 - 22
- 2- المصدر السابق. ص: 23
- 3- المصدر السابق. "ملحق اميرداغ" القسم الاول ص: 58 - 65
- 4- المصدر السابق. "المناظرات" ص: 22
- 5- المصدر السابق. "المحاكمات" ص: 8
- 6- المصدر السابق. "الكلمات" ص: 146 - 148
- 7- بديع الزمان سعيد النورسي: "الكلمات" ص: 363 - 364
- 8- بديع الزمان سعيد النورسي: "اللمعات" ص: 283.
- 9- بديع الزمان سعيد النورسي: "الشعاعات" ص: 187-188.
- 10- بديع الزمان سعيد النورسي: "مفتاح الايمان" ص: 87 - 90
- 11- بديع الزمان سعيد النورسي: "المكتوبات" ص: 54 و بديع الزمان سعيد النورسي: الخطبة الشامية ص: 33 - 34
- 12- بديع الزمان سعيد النورسي: "اشارات الاعجاز" ص: 53 - 54
- 13- بديع الزمان سعيد النورسي: "المحكمة العسكرية العرفية" ص: 49